الثقافة المسمومة

الجمعة 27 يناير 2017 09:01 م

مجدي مغيرة

ربما يتسلل لصٌ ليسرق الزرع ، أو يدلف حاقدٌ ليتلفه ، لكن رغم خسارة الزارع في ذلك إلا أنها خسارة قريبة ، إذ إن الأرض لا تزال بحالها وخصوبتها ، وعندما يتم غرس البذور فيها ، ففي خلال موسم زراعي آخر يمكن أن ينبت زرعٌ آخر قد يثمر أضعاف ما ضاع أو تلف من زرع ، لكن حينما يتم تسميم الأرض نفسها ، فحينئذ لو زرعنا ، لما أنبتت الأرض ، حيث صارت عقيمة ، أو لحصدنا ثمارا تفسد الحياة لا أن تصلحها .

وحالنا في بلادنا مثل هذا المثل الذي ذكرت ، فقد كان عدونا ذكيا قد استفاد من تجاربه المريرة السابقة ، فبعد هزائم منكرة على يد أبطالنا استطاعوا خلالها أن يستردوا أضعاف ما فقدوا ، رأى العدو أن خير وسيلة هي أن يفسد العقول والنفوس حتى لا يظهر أمثالُ صلاح الدين الأيوبي أو محمد الفاتح .

وإفساد العقول يبدأ من تغيير الفكرة ، ومن تشويه الحقائق ، ومن تزييف الوقائع ، ومن استبدال العقيدة ، ومن النظر تحت الأقدام بدلا من النظرة البعيدة العميقة ، ومن التضحية بالمبدأ من أجل المصلحة ، ونسيان الآخرة ، والتعلق بالدنيا .

وتشويه النفوس يبدأ من تفضيل متاع الدنيا على نعيم الآخرة ، وسيطرة الشهوات ، والتحرر من الفضائل ، ومن غلبة أمراض النفس من حقد وحرص وحسد وطمع .

وقد نجح أعداؤنا إلى حد بعيد في تخطيطهم ، فقد سيطروا على مراكز صنع الإنسان في بلادنا :

سيطروا على المدارس والجامعات ، فتخرجت أجيال تدين بالولاء للغرب أكثر مما تدين بالولاء لدينها وحضارتها .

وسيطروا على وسائل الإعلام والثقافة ، فتشوهت الحقائق ، وانحرفت الميول والأهواء ، ولما صارت الأخلاق النفعية هي الحاكمة على النفوس سهل على الكثير أن يبيع ضميره في أسواق النخاسة

فالقضاة يقبلون الرشاوى من أجل تبرئة متهم أو اتهام بريء ، رغم أن المفترض فيهم أنهم يتمتعون بوعي كبير ، وضمير حي ، ودرجة عالية من العلم والمعرفة .

والأطباء يتاجرون بالأعضاء البشرية ، ويرتكبون هم وشركاؤهم من أجلها جرائم قتل بشعة للأطفال المخطوفين من أحضان عائلاتهم ، وكذلك الأطباء الذين يشاركون في تعذيب المعتقلين السياسيين بالامتناع عن علاجهم أو إعطائهم الأدوية اللازمة لهم ، رغم أن هؤلاء الأطباء من أرقى طلاب المدارس علما وذكاء وفهما ، إضافة إلى أنهم يقسمون قسم أبقراط الذي استحلف فيه الذين يمارسون مهنة الطب أن يكونوا ملازمين للطهارة والفضيلة .

والسياسيون لا يمانعون أن يكونوا ذيولا للشرق والغرب ، أسودا جائعة ضد شعوبهم ، من أجل البقاء في الكرسي والاستمرار في الجلوس عليه .

والخبراء والمفكرون لا هَمَّ لهم سوى تبرير الظلم ، وتشويه صورة من يكشف الحقائق ، وتخدير العقول ، وإفساد الضمائر والنفوس وتخريب القلوب .

إزاء كل هذا ، فنحن بحاجة كبيرة إلى تجريف التربة السامة التي تنبت لنا زرعا ساما ، نحن نحتاج إلى العودة إلى ثقافتنا الإسلامية البعيدة

عن التزوير والتحريف ، ونحتاج أن نتخلص من سموم الثقافة الوافدة إلينا من كل حدب وصوب ، بدون ذلك ستظل أرضنا تنبت لنا الأعداء بدلا من الأصدقاء ، والجواسيس بدلا من الأمناء ، وشياطين الأرض بدلا من أتباع الأنبياء .

إن العقبات الضخمة التي تقف عائقا أمام أحلامنا اليوم نابعة من بعض أبنائنا الذين هم منا ويتكلمون بألسنتنا ويتسمون بأسمائنا .
ومن هذه العقبات أيضا نزوع كثير منا إلى مصالح الدنيا وإيثارها على الآخرة ، وصدق فينا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا تبَايعتم بِالعينة وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بِالزرع ، وتركتم الجهاد سلَّط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم" . مهما كانت قوة عدونا ، فهو لا ينتصر علينا إلا بسبب الخلل الواقع فينا ، كما في جزء من الحديث الذي رواه شداد بن أوس في مجمع الزوائد بسند صحيح حيث يقول : " .....وألَّا أسَلِّطَ عليهم عدوًّا ممَّن سواهم بعامة فيُهلِكوهم بعامةٍ حتى يكون بعضُهم يُهلكُ بعضًا ، وبعضُهم يقتلُ بَعضًا" .

فهل نستطيع أن نستدرك ما فاتنا ؟ هل نستطيع أن نراجع أنفسنا ، هل نستطيع أن نعود لديننا وحضارتنا وثقافتنا ؟
قد يجيب البعض أن ذلك مستحيل ، لكني أجيب عليه بحديث نبينا صلى الله عليه وسلم الذي ورد في "مشكاة المصابيح" ورواه عمران بن حصين بسند صحيح على شرط مسلم : " لاتزال طائفةٌ من أمَّتي يقاتِلونَ على الحقِّ , ظاهرينَ على مَنْ ناوأَهم , حتى يقاتلَ آخرُهم المسيحَ الدجالَ" . وعادةً تُطلق كلمة طائفة للدلالة على الجماعة من الناس يجمعهم هدفٌ واحد ومبدأ واحد ، لكنهم أقلية مقارنة بغيرهم من أبناء أمتهم ....هذه بشرى للقلة ذات العزيمة الفولاذية ، فهل نكون منهم ؟

المقال يعبر عن رأي كاتبه، ولايعبر بالضرورة عن رأي نافذة مصر